من رسائل الأب صفرونيوس القصيرة

نعمة البنوة

و٨ مقالات أخرى

من رسائل الأب صفرونيوس القصيرة

نعمة البنوة

جذور للنشر والترجمة والتوزيع
GOZOOR for publishing, Translation & Distribution
email:gozoor_eg@yahoo.com
Tel: 26338137

١ - نعمة البنوة

٢ - المعنى الحسّي والمعنى الروحي
للأقوال الإلهية

٣ - المولود من الله لا يخطئ

٤ - لسان السوء

٥ -علاجُ الكآبة

٦ - روح الفضول الباطل

٧ -البرُّ الذاتي وأفكار الدنس

٨ - الطريق الملوكي

٩ - الذبيحةُ العقلية

١ - نعمة البنوة

١- النعمة والتقديس صارا بيسوع المسيح إلهنا، الذي أعطانا خلاصاً عظيماً لا يمكن تقديره (تقدير اتساعه)؛ لأنه "ليس بكيل يعطي الله الروح"، لئلا تصبح النعمة الإلهية مقداراً يُقاس ويُوزَن، وهي ليست من الطبائع المخلوقة. يريد الله أن يخلص الكل وأن يؤمن الكل باسم ابنه الوحيد، ولكن قساوة طبع الإنسان تجعل الله يتمهل على كل إنسان لكي يعود إليه، وإذا رَجَعَ، فإنه يجتذبه بالعذوبة وبحلاوة المحبة، لعله يتجرَّد من قساوة الطبع ويتقدَّس بنعمة الروح القدس.

٢- ما أكثر العطايا التي يشتاق الله لأنْ يعطينا إياها، ولكن ما أقل العطايا التي نأخذها. انظروا كيف وهَبَنَا البنوةَ، ومعها ميراث ابنه الأبدي، فكيف نأخذ شركتنا في البنوة دون أن نأخذ معها ما يجعلنا فعلاً أبناء الله؟ لقد صرنا بالحق مقدَّسين في طاعة ربنا يسوع المسيح، الذي لم يكن له احتياج لأنْ يُقدِّم طاعةً نقيةً للآب، ولكنه قدَّم هذه الطاعة، أي حياته قرباناً مقبولاً؛ لكي يؤسِّس لنا عودةً من موت العصيان إلى حياة الحق.

٣- لننظر إلى أنفسنا لئلا بعد أن قُدِّمَ لنا، بسعةٍ، أن ندخل ملكوت الله، نجد أنفسنا في النهاية وقد طُرحنا خارج الملكوت مع الزناة والقتلة وكل الذين لا يخافون الله، ولا عرفوه البتة.

٤- إن الذي يعطِّل عمل الله فينا هو الأهواء التي غرستها الخطية فينا. والله ينظر إلى هذه الأمراض جميعها مثل طبيبٍ حكيم جداً، فيعطينا أن تتوقف هذه الأهواء لكي نذوق محبته، ونرى في حلاوتها ما يؤهِّلنا لأنْ نبتعد عنها. وتضعف أهواء الخطية بسبب القوة التي تغرسها محبة الله. وليس هذا هو الشفاء، إنما هو الترياق الذي يوقِف مفعول السُّم، ومع ذلك لا يعطي الحياةَ الصحيحةَ التي بلا أمراض.

٥- وبعد ذلك يَهَب لنا الطبيبُ الحكيم والإلهي أن نموت مع ابنه، فهذا هو الدواء الوحيد الذي يعيد إلينا الحياة، ويجعلنا قادرين على أن نعود إلى الصحة. فالموت مع ابنه الوحيد هو الذي يخلع الشر الكامن في داخلنا؛ لأن الله لا يعطي نعمةً للنفس التي لا تريد أن تموت، ليس عن بُخلٍ، وإنما لئلا تأخذ نعمة الحياة الجديدة وتحولها إلى حياةٍ فاسدةٍ، ويتم فينا الحكم الإلهي الرهيب: "إن كان النور الذي فيكم قد صار ظلاماً، فالظلام كم يكون رهيباً".

طوبى لمن يقبل الصليب في جسده وروحه كقوةِ شفاءٍ؛ لأنه بالصليب وحده، ينال القوة الجديدة، أي القيامة.

٦- كثيرون جرَّبوا طريق ربنا يسوع المسيح وتركوه بعد زمن؛ لأنهم جرَّبوا أن يسلكوا بقلبين، ولذلك لم يجدوا فيه ربحاً؛ لأن المخلص قال: "لا تقدروا أن تخدموا الله والمال"، ولـمَّا فشلوا في التجارة في الحياة الجديدة، انتقلوا إلى سلعة الموت، وباعوا أنفسهم في سبيل الحصول عليها، فصاروا مثل الذي بنى البرج ولم يكمِّل، ونال هُزأ العابرين في الطريق.

٧- الذي له قلبٌ منقَسِمٌ لا يأخذ شيئاً؛ لأن القلب المنقَسِم مثل "موج البحر" لا يستقر في مكان ولا يتحرك في اتجاهٍ واضحٍ. وهكذا، إن لم نهدأ ونستقر، لا نأخذ نعمةً من الله، وإنما نظل مثل الأجنة عديمة الكمال والتي تولد قبل أن تكتمل وتموت على الفور، أو تحيا بصعوبةٍ ومشقةٍ.

٨- لأجل ذلك، علينا أن ندرك أننا نحن أنفسنا الذين لا نقبل الدواء، ونصرخ أحياناً في وجه الطبيب الرحيم بأن الدواء مُرٌّ وصعبٌ علينا أن نشربه. فلا نتذمر إن جاء وقت المطر ولم نستفِد شيئاً؛ لأننا لم نضع البذار الصحيحة في مكانها. وما هي البذار الحقيقية سوى التخلي التام عن

الذات وعن القِنيةِ وعن الأهواء، لكي نقتني حياةً أفضل، ليست مبنيةً على رمال هذا العالم الزائل، الذي يتمخض بأوجاع كثيرة، إلى أن يولد الجديد، ومتى وُلد، صارت كل اختيارات البشر الزائفة قبضَ ريحٍ وخيالاتٍ طائشةٍ؛ لأن الذين شيَّدوا حياتهم على الرمال، متى جاءت سيولُ الموتِ وبلايا الحياة الحاضرة، جَرَفَت كل آمالهم، وجعلتهم يكتشفون أن فساد الحياة التي اقتنوها، في أنها لم يكن أساسها الله.

٩- عندما سقط الإنسان الأول، جَرَفَه الشَّرُّ إلى أمورٍ غير حقيقية، أي ليست من الله ولا تنتمي إلى الخليقة التي خلقها الله. فقد تصوَّر الإنسان أنه قادرٌ على أن يكون مِثل الله بقدراته وليس بالنعمة، وبإرادته المنفردة وليس بالشركة، وهي اتفاق المحبة بين الله، الذي من عِظَمِ صلاحه لم يضِن بالوجود على أحدٍ، بل أتى بالكل من العدم، وقَسَمَ لكل كائنٍ مقداراً من العطايا، فوهبَ للحيوانات والنباتات أن تُخلق على النحو الذي يجعل الإنسان سيداً عليها، وربَّاً نال سلطان التسلط عليها. أمَّا الإنسان الذي خُلِقَ على صورة الله ومثاله، فإنه كان يرى ذاته في الله، ويدركها من خلال الشركة مع الخالق، لكنه عندما لم يستحسن أن يبقى كما خلقه الله، وتعدَّى حدود طبيعته؛ سقطَ وطُرِدَ من الفردوس،

وصار الموتُ ينشئُ فيه أهواءَ كثيرةً تجعله يتشبَّثُ بالبقاء وبالحياة الباطلة التي اخترعها لنفسه.

١٠- لأجل ذلك كله، جاء الطبيب الحقيقي بدواء جحد الذات، والتخلِّي عن الحياة الفاسدة التي خلقها الإنسانُ لنفسه، ليس حسب الصورة الإلهية الحق، بل حسب صورة الإنسان الميتة التي سادت عليها الأهواء. وقد نادى مخلصنا الصالح قائلاً: إن كان أحدٌ يريد أن يصير لي تلميذاً، فليجحد ذاته ويتبعني، ومَن لا يجحد ذاته، لا يقدر أن يكون تلميذاً. وكان ربنا يسوع يعني بهذا أنه لا يقدر أن يكون ابناً لله؛ لأن ابن الله الوحيد، جاء لكي يُتلمِذ الإنسانية ويعلِّمها كيف تعود إلى مرتبة البنوة. وكطبيبٍ حقيقيٍّ أراد أن يحدد مرض الإنسان الأصلي، وهو أن الحياة الحقيقية تأتي من الله، وليس من الإنسان. فالفرق بين الحياة التي يهبها الله، أنها حسب الصورة والمثال، وأمَّا الحياة التي صنعها الإنسان لذاته، فهي ليست حسب الصورة والمثال، وإنما حسب ما تخيَّله الإنسانُ لذاته، لا حسب ما تخيَّله عن نفسه، وهو ما ليس له كيان أو وجود. وهكذا نرى أن هبة الحياة التي وهبها الله للإنسان لم تعُد كما كانت، حسب الصورة، بل أخذها الإنسان وجعلها عكس ذلك، وهو ما جعل الشركة بينه وبين الله غير ممكنة. وعندما رفض الإنسانُ أن يحيا حسب

الصورة، فقد رفض الاعتماد على الخالق، وأنكر عليه قوته المطلقة، وصار يفتخر بسلطانه على الكائنات الدنيا التي خُلِقَت لمنفعته وخدمته. أمَّا الله، فقد تركه لذاته، ولم يعد يعطيه ما يؤهِّله للشركة، أي الروح القدس؛ لأن الاستنارة التي يعطيها الروح القدس، هي وحدها التي تؤهِّل الإنسان لأن يعرف الله، ويحيا حسب الصورة.

١١- كان الله يسكن في الإنسان قبل السقوط، وحلَّ فيه مانحاً إياه -كخالقٍ- حياةً إلهيةً تبعده عن الفساد والموت؛ لأن الابتعاد عن الله يعني انحلال الطبيعة المخلوقة التي لا تستطيع أن تعيش بدون الصلاح الإلهي الذي يسمح للخليقة بالبقاء؛ لأن الرسول وهو يعلم وَهم الإنسانية الساقطة، قال عن سلطان الله والخاص بجوهره: "حامل كل الأشياء بكلمة قدرته"، وأيضاً: "لأن قدرته الفائقة تُرى ببقاء المخلوقات" (رومية ١: ٢٠)، لأن الله الكلي الصلاح لم يترك خليقته؛ لأنه لو فعل ذلك، لعادت فوراً وبدون أي إبطاء إلى العدم، لكنه استمر يرعاها عالِماً أنه سوف يجددها.

١٢- فأيُّ أُناسٍ يجب أن نكون نحن الذين أدركتنا نعمة الله الصالحة؟ لأنه إن كان الله قد أشفق علينا ودعانا إلى تلمذة البنوة، ووهبنا شركةً صالحةً في خيرات أُلوهيته

في ابنه الوحيد، فكيف نصرف العمر في اقتناء الفانيات؟ وكيف نجمع أباطيل وخيالات الحياة الزائفة البعيدة عن الله، ونجعلها الكنز الذي تعتمد عليه حياتنا؛ لأن الرب الطبيب الحقيقي قال: "حيث يكون كنزك، فهناك يكون قلبك"؟ ولأن الإنسان مخلوقٌ، فهو لا يحيا في فراغ، وإنما كمخلوقٍ، يتلقى إمَّا العطايا الإلهية، أو ما يتصوره قلبه؛ فعلينا ألا نسعى إلى سيِّدٍ آخر سوى الله، لئلا يداهمنا الموت، ونخلع الجسد، ونقف عراةً من المجد الإلهي، ولا نجد سوى أوراق التين البالية التي لا تقوى على البقاء.

١٣- لنخلع أعمال الظلمة، أي الابتعاد عن الله، ونلبس أسلحة النور التي تقاوم الفناء. لنكن صاحين؛ لأن الصحوة هي التي تجعلنا قادرين على التوبة. وإن كان كل ما لا يأتي من الله لا يدوم، فأيُّ عذابٍ نتوقَّعه لأنفسنا، إذا وجدنا ذواتنا فارغين لم نقتنِ الأمانة، ولا يسكن فينا الروح القدس، وأننا نتكالب على المقتنيات ظانين أن فيها حياةً، وهي ليست سوى مصنوعاتٍ تَبيد إن تخلت عنها النعمة الإلهية الصالحة.

١٤- لنقتنِ الاعتماد التام على الله، حتى وإن هيَّأ لنا دواءً مُراً، فالله الصالح لا يعطينا سوى الصالحات. وجحدُ

الذاتِ صعبٌ إذا حاولناه بدون محبة الله، ورأيناه وحده دون تأمل الحياة الجديدة التي يهبها الربُّ لنا بصلاحه الفائق.

١٥- ومتى بدأت النفس تتخلى عن حياتها القديمة، في الفكر والحديث، وبدأت في التعامل مع الإخوة بروح الصبر والاحتمال، وليس بروح الكبرياء والغرور وفرض الهوى (الرأي) على الآخرين، فإن حُسن وجمال الحياة الجديدة يجعلنا نسرع بالسير في الطريق الضيق، ونراه وقد صار سهلاً طبقاً لقول الرب: "احملوا نيري عليكم، لأن نيري هين وحملي خفيف" وعند ذلك يُشرق الربُّ علينا، ويرى كلَّ شيءٍ، فإذ هو حسنٌ جداً.

٢ - المعنى الحسّي والمعنى الروحي للأقوال الإلهية

١- صفرونيوس إلى الأخوة الذين في الشركة.

صلوا لأجلنا؛ لأن الصلاةَ تشُدُّ أزرَ المقاتلين وتقوِّي عزمهم، أمَّا الذين يستسلمون لنزوات الجسد وأهواء النفس، فهؤلاء يحتاجون مِنَّا إلى دموعٍ مع الصلوات.

٢- كتبتم إلينا عن المعنى الحسي والمعنى الروحي لأقوال الله الحية، وما أكتبه إليكم، هو ما استلمته أنا من الذين عاشوا قبلنا، وسلَّمونا الوديعةَ، أي الإيمان الأرثوذكسي.

٣- ليست كل أقوال الله ذات أعماقٍ واحدة، كما أن الذين يرونها، ليست لهم ذات قوة النظر. وعيونُ الأطفال تختلف في تركيبها عن عيون الشيوخ، ولكن الإدراك مختلفٌ. وهكذا الذين يقرأون كلمة الله، فليست العبرة بمن يقرأ، ولكن العبرة في الإدراك الذي يتكوَّن من خلال الصلاة والحياة الحسنة والعبادة.

٤- الأقوالُ الإلهية لا يمكن أن تؤدِّي بنا إلى إنكار العقيدة المُسلَّمة إلينا من القديسين. وكمثالٍ لذلك، عندما جادل بعضُ الأخوة حول معنى قول الرب: "هذا هو جسدي ..

وهذا هو دمي"، فقد قال أحد الشيوخ إن الكلام له معنى ظاهر؛ لأن الربَّ تجسد فعلاً ومات على الصليب، ولذلك، إذا قال: "هذا هو جسدي وهذا هو دمي"، فهو يعني فعلاً جسده ودمه بالمعنى المحسوس الواضح. لكن هناك عمقاً روحياً في الكلمات ندركه من قول الرب نفسه؛ لأن الجسد، جسدٌ حيٌّ ومحيي، فمنه نأخذ الحياة الأبدية كما قال ربنا: "إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان ليس لكم حياة فيكم"، وبهذا صار من الواضح أن الأكل هو الذي يؤخذ روحياً، وليس حسب ظاهر الكلمات المحسوسة.

٥- لقد سأل الأخوة عندما كنا نقرأ الرسالة إلى العبرانيين في المجمع عن معنى قول الرسول عن الذين عاشوا بالإيمان أنهم "أطفئوا قوة النار". وقال أحد الشيوخ إن النار لم تقوَ على أنفسهم لأنها حيةٌ بالله، وبالتالي صار اللهيب لا شيء، رغم أنه أكل أجسادهم. هذا المعنى صحيح؛ لأنه يعتمد على قول الرب عن عدم الخوف من الموت حسب الجسد، أي قتل الجسد وإشعال النار فيه، وإنما لا يجب أن يؤخذ هذا المعنى الروحي لإنكار قدرة الإيمان على إطفاء النار بالمعنى الحسي الظاهر؛ لأن الفتية الثلاثة في أتون النار، لم تمسَّهم نيران الأتون بسبب حضور ربنا يسوع المسيح ابن الله معهم، هذا هو المقصود من قول الرسول.

٦- بنفس الروح يقول الرسول: "قارنين الروحيات بالروحيات"، وهذا يعني أن أعماق كلمة الله تُفسِّرُها أقوال الله نفسه. وبالمقارنة بين الأمور الروحية الواضحة، يصير المعنى الخفيُّ غير المعروف ظاهراً لنا. ففي قول الرب للمرأة السامرية عن الماء، معنىً خفياً لا يظهر إلا بالمقارنة بما جاء عن الماء في نفس الإنجيل والأقوال الأخرى، وعندئذ يصبح من الواضح أن الربَّ يتحدث عن الروح القدس الذي سوف يفيض منه على البشرية؛ لأنه هو الرأس الذي مُسِحَ أولاً، ومنه تنزل المسحة على باقي أعضاء الجسد، كما يقول المزمور.

٧- وأيضاً في قول الرسول بولس عن الكنيسة إنها "جسد المسيح الواحد"، فالمعنى الحسِّي الظاهر هو أننا فعلاً من أعضاء لحمه وعظامه، مثلما صارت حواء من آدم؛ لأنها أُخذت منه فعلاً، لكن هذه الصيرورة ليست هي المقصودة، وإنما مقصودٌ منها أننا ننال الميراث السماوي على النحو الذي قاله الرب: "حيث أكون أنا يكون خادمي معي"، وأيضاً: "أنا ذاهبٌ لكي أُعد لكم مكاناً ومتى ذهبت وأعددته لكم أجئ إليكم لكي آخذكم". ومن الواضح أن جسد المسيح يعني شركة الميراث السماوي والمجد والبنوة من الآب. لكننا لا يجب أن ننكر وحدتنا معه في الجسد الواحد؛ لأننا صرنا شركاء المجد الإلهي، ليس بتقوانا، وإنما لأنه ألبسنا

طبيعةً جديدةً هي طبيعة آدم الثاني الذي قهر الفساد والموت وسد فم الهاوية. وبدون التجسُّد ما كانت الكنيسة تُدعى جسد الابن. وبدون اتحاده بنا، لا نصير نحن أعضاء جسده. وعلى ذلك يصبح من الخطر الشديد هنا أن نفصل المعنى الحسي الظاهر عن المعنى الروحي؛ لأننا إن فعلنا هذا نكون قد سقطنا في بدعة الخياليين الذي أنكروا مجيء ابن الله في الجسد. هؤلاء لا يمكنهم أن يظلُّوا في الكنيسة إلا إذا اعترفوا بها جسدَ المسيح الواحد غير المنقسم.

٨- وهكذا، لنسرعَ بوضع أقوال الله على أساس الإيمان الذي استلمناه. وأنا أعني الإيمان الرسولي الذي هو الإيمان بالثالوث وبتجسد ابن الله وموته وقيامته، وبالفوائد الأخرى التي وضعها آباء المجمع العظيم، فهي المفاتيح التي تفتح لنا أسفار الله، وتؤكِّد صحة التعاليم التي نسمعها.

٩- وإذا كان، بمقارنة الواضح بالغامض والسِّرِّي، يصير لنا معرفةً يقينيةً، وكذلك، بالبحث عن غاية المفسِّر يصير لنا إفرازٌ؛ لأن الذي يفسِّر أقوال الله، يحكم تفسيرُهُ على صدق إيمانه وعمقه. فالبعض الذين ينكرون المعجزات بسبب تأصُّل الفلسفة الوثنية في فكرهم، هؤلاء يميلون إلى الرمزية في التفسير هرباً من المشاكل التي يسببها المعنى الحسي. ولكن

تفسير أقوال الله ليس بالهرب منها، وإنما بصدق الإيمان. فإن كان إشباع الآلاف بخمسة أرغفة يبدو أمراً فائقاً لا يصدقه العقل؛ لأنه يفوق الإدراك، فالهدف الروحي للمعجزة هو تأكيد الإيمان بأن المسيح هو حياة العالم، وإن الخبز الذي يُشبِع الإنسانية هو الإفخارستيا. وكثيراً ما قام ربنا بمعجزاتٍ كثيرة لكي يؤكِّد الأساسات التي يقوم عليها البناء، وهي أنه الإله الحي والمُتَّحِد بالناسوت، وأنه خبز الحياة وماء الحياة. ومعجزات الرب كلها لا تخلو من المعاني الروحية الفائقة الظاهرة بوضوح في إطار البشارة التي حملها لنا الرسل.

وأنا أسألكم أيها الأخوة: أليس من المستطاع للرب أن يشفي الأبرص بكلمة؟ نعم، وقد أقام لعازر بكلمة، ولكنه شفى الأبرص عندما لمسه، وكذلك فعل مع المرأة النازفة الدم، إذ تركها تلمسه ومنه "خرجت قوة" شفتها؛ لأنه في كلتا المعجزتين، أظهر أنه لا يستحي من برص الإنسانية وعجزها ومرضها، وأنه لا يخجل ولا يستحي بإخوته. ومرةً لَمَسَ النعشَ لكي يؤكد أن الحياة تسري منه. أمَّا مع لعازر، فقد صرخ فيه وأعاده إلى الحياة لكي يعلن أن الكائنات كائنةٌ بكلمة قدرته، وأنه يأمر بكلمةٍ، فيعطي حياةً لمن يشاء، فهو الحامل كل الأشياء بكلمة قدرته.

١٠- ولذلك، علينا ونحن نتأمل أقوال الله، أن نبحث نحن الهدف الذي لأجله كُتِبَتْ هذه الأقوال. مرَّاتٍ أكَّد الإنجيليون إيمان الرسل، وأحياناً أعلنوا عن ضعف إيمانهم، بل مرةً انتهر الربُّ بطرسَ وقال له: "أنت معثرةٌ"، فكيف نراهم مرَّاتٍ أصحابَ إيمانٍ ومرَّاتٍ ضعفاء؟ الواضح لنا، وحسب تسليم الآباء، أن الرسل كانوا أقوياء في الإيمان متى كانوا ينفِّذون وصية رسوليتهم: "اشفوا المرضى اقيموا الموتى". ولكنهم، عندما يكونون في حضرة المسيح وهو واقفٌ معهم، فالأنظارُ تتجه إليه وحده. وأينما كان الرب واقفاً، كان الرسل يعجزون عن القيام بالمعجزات؛ لأنه متى حضر السيد، اختفى العبد. أمَّا عندما كان الربُّ بعيداً أو هم بعيدون عنه، أعطاهم السلطان على القيام بالمعجزات.

١١- وعلى هذا الأساس السليم يجب أن نبني؛ لأن الرسل كثيراً ما أظهروا ضعفهم، وهو ضعفٌ حقيقيٌّ؛ لأن السلطان العامل فيهم هو سلطان الرب. ولذلك، كثيراً ما فشلوا، حتى يظهر لنا بوضوح، أن القوة الإلهية ليست حسب مشيئتهم، وإنما حسب مشيئة السيد الذي أعطاهم وفوَّضهم في القيام بخدمة الرسولية.

١٢- أمَّا إذا تعارض تفسير أقوال الله مع التعاليم الثابتة، فإن هذا التعارض ينشأ بسبب عدم الإدراك، وهو ما أعنيه عن القول إن عيون الأطفال ليست مثل عيون الشيوخ، فعلى الرغم من أن الطبيعة الجديدة التي فينا هي طبيعة واحدة؛ لأنها هبة الله في المسيح، إلا أن الإدراك ليس واحداً في الكل. وهذا ما يدعونا إلى أن نعود إلى الذين تدرَّبوا على الإيمان واكتشفوا أعماق أقوال الله.

١٣- لكن في كل هذا، يجب أن تكون المحبة هي غاية قراءة أقوال الله؛ لأن الذي يقرأ من أجل الجدال ووضع العثرات في طريق الأخوة، فهو لا يجمع مع الرب، إنما يفرِّق مع الشيطان.

تقوَّوا في الربِّ لكي تنالوا فيضَ محبته للآب. الربُّ يحفظنا وإياكم في محبته. صفرونيوس يسأل صلواتكم.

٣ - المولود من الله لا يخطئ

١- صفرونيوس إلى الإخوة في البرية، سلامٌ في الرب مصدر كل شيء، والذي بدونه لا سلام لنا حتى مع أنفسنا، فكم بالحري مع اخوتنا.

الجدلُ الكثير يزعج المبتدئين، ومع أنه قد يُفيد البعض، إلَّا أن أضراره أكثر من فوائده. أما الذين تدرَّبوا على حياة الفضيلة والعبادة الحسنة، فهم بالتأمل والاختبار، يدركون الكثير من الأسرار، ومتى نموا في حياة التأمل وهدأت الأوجاع الداخلية، امتلك الإدراكُ عندهم قدرةً على فهم أسرار الله، وقويت جذور الحياة الجديدة، ونما فيهم زرع الله.

٢- أردت أن أكتب لكم عن معنى ذلك النص السِّري الجميل المملوء بالمعاني الفائقة، وهو القول الإنجيلي: "المولود من الله لا يخطئ". ومع أن ضمائرنا تشهد علينا من آنٍ لآخر أننا لسنا بلا خطية، كما قال الإنجيلي نفسه الذي كتب نفس الكلمات السابقة بوحي الروح القدس: "إن قلنا إننا بلا خطية نضل أنفسنا وهذا ليس الحق الذي فينا"، أي أننا نعثر من آنٍ لآخر، ونعترف بهذه العثرات للشيوخ لكي ننال الشفاء. ثم أن الإنجيلي نفسه يقول: "كتبت لكم هذا لكي لا تخطئوا، وإن أخطأ أحدٌ، فلنا شفيعٌ عند

الآب هو يسوع المسيح البار الذي صار كفارةً". ولأن المعنى السِّري غير ظاهر، أردت أن أضع أمام محبتكم ما سمعته وما استلمته من الشيوخ الذين عاشوا حياة العبادة الحسنة. لقد سلَّمنا هؤلاء أن المعنى الظاهر لهذه الكلمات: "المولود من الله لا يخطئ"، أي لا يفقد إيمانه بالدينونة الآتية، فهو كابنٍ لله، لا يمكنه أن يقع في هذا الخطأ الذي يقع فيه الهراطقة، وهو إنكار القيامة والدينونة.

٣- كلُّ مَن يخطئ يموت، والخطية ليست من الإيمان، والإيمان يشهد أن ابن الله أدان الخطية، وأن الذي بلا إيمان، إنما يقع تحت حكم الدينونة.

ومَن هو المولود من الله إلَّا الذي يؤمن بأن يسوع هو المسيح الذي جاء وتجسَّد، وهو جوهر رسالة الإنجيلي يوحنا الذي نرى فيه هذه الكلمات الفائقة، والتي لا يجب أن نعزلها عن الرسالة، لأننا متى عزلناها، أخطأنا في فهمها.

لقد أنكر الهراطقةُ القيامة، وأنكر الآخرون الدينونة، إذ حَسِبوا أن الجسدَ لا يقوم من التراب، ولا ينهض في اليوم الأخير. وكلُّ هذه تعاليم مضادة ضد تجسد ربنا يسوع المسيح، وضد قيامته أيضاً. ولذلك، المولود من الله لا يخطئ؛ لأنه يعرف أن الابن تجسَّد، وأن الدينونة هي على

ثمار أعمال المحبة. ومن جهة هذا الأمر بالذات، لا يخطئ المولود من الله، لأن القيامة والدينونة آتية.

٤- والمولود من الله لا يخطئ بمعنى أنه لا يسقط في خطية الارتداد؛ لأنه يعلم أن مصدر كل شيء، إنما هو الآب السماوي، وأنه بالإيمان به يُولَد منه في ابنه يسوع المسيح وبالروح القدس. فهو لا يخطئ في معرفة الآب السماوي، ولا يخطئ في معرفة أنه بدون محبة الله لن يرث ملكوت السموات.

٥- ومِن المولودين من الله الذين لم يخطئوا فيما ذكرناه من معاني محددة: أغناطيوس وبوليكاربوس وغيرهم من الشهداء الظافرين، فالشهداء لم يحسبوا أن العالم يستحق شيئاً، لأنهم مولودين من الآب وأسلموا أجسادهم بدون تردد للسباع والنار وصنوف العذاب الأخرى.

٦- ونحن نُولد مثل الشهداء، من الله عندما نرفض العالم. والمولود من الله حقاً يثبُت، ومهما اشتدت الحرب عليه لا يرتد ولا يفقد بنوَّته، ولو ظل يصارع حتى آخر نَفَس، فهو مجاهدٌ، وتعينه ولادتُه من الله على الثبات في الجهاد؛ لأنه بدونها يهلك. وكلُّ مَن يحفظ نفسه يثبُت ليس بالكلام، وإنما بالحياة التي تتأمل في أقوال الله الحية

في الأسفار الإلهية، فهي صوت الدينونة الذي يحكم على العالم ومفاسده.

٧- فهل لا نخطئ بالمرة؟ لقد قال واحدٌ من الرسل الاثني عشر إننا في أشياء كثيرة نعثر جميعاً. ولكن الفرقَ بين الخطية والعثرة ظاهرٌ؛ لأن الخطية تقود إلى الموت، أمَّا العثرة فهي صادرة من الطبع الضعيف، وهي عثرةُ طفلٍ يتعلم المشي. وأولاد الله لا يخطئون ولا يرتدون عن الإيمان، وهي خطية الموت التي قِيل أن لا نطلب مغفرتها للآخرين؛ لأن الإيمان الذي يهب المغفرة هو غير كائن وبالتالي هي خطية موت. وهؤلاء المرتدُّون لا يثبتون في الآب والابن والروح القدس. أمَّا الذين لا يرتدُّون وكان فيهم ضعفٌ ظاهرٌ، فهؤلاء بكل يقين يعثرون ولكنهم يتابعون المسيرة.

٨- وقد وضعت الكنيسة الجامعة عدة قوانين معروفة للمرتدِّين، وهي قوانين أقرتها المجامع المسكونية والمكانية. فإذا كانت القوانين موضوعة للمرتدِّين من أجل عودتهم لشركة الكنيسة، فواضح أن هذه القوانين تؤكد أن الذين يولدون من الله في المعمودية المقدسة يمكن أن يجحدوا الإيمان في حالات الضعف، ولكن لأنهم يرغبون في العودة، صارت رغبتهم في العودة شهادةً على أنهم مولودين من الله، ولذلك يجب تطهيرهم بالتوبة وبالاعتراف وبالنسك. أمَّا الذين لا

يرغبون في العودة، فهؤلاء متى ماتوا في الارتداد أكَّدوا أنهم لم يُولدوا من الله، ولعل المثل الصادق الذي يدلُّ على هؤلاء، هو أريوس الذي كان قساً وجحد الإيمان ومات في جحوده.

٩- والذين لا يعودون هم مثل الذي دَفَنَ الوزنةَ ولم يربح منها شيئاً، والوزنةُ هي ختم المعمودية المقدسة الذي لم يستفِد منه. ونحن نعلم أنه في زمان الاضطهاد، لَبِسَ موعوظون أكاليل مؤمنين ارتدُّوا، كما حدث مع شهداء سبسطية وغيرهم.

١٠- ينبغي علينا أن ندرس تاريخ الكنيسة جيداً، وحياة الآباء الذين سبقونا لكي نفهم كيف نفسر أقوال الله الحية تفسيراً سليماً يتفق مع التسليم الرسولي.

١١- وأمَّا نحن الذين أدركنا المعاني السابقة، فلنَخَف من الذي بعد أن اِتَّضع، سوف يجلس للدينونة، ولنطرح أنفسنا عند قدمي الرب الفادي لكي ننال الرحمة.

صلوا لأجلنا. يصلي الأخوة لأجلكم.
سلامٌ في الآب والابن والروح القدس،
إلهنا الذي وُلِدنا منه للحياة الأبدية.

٤ - لسان السوء

صفرونيوس إلى الإخوة في الشركة (كنوبيون)، سلامٌ في الربِّ الذي أقامنا معه. كتابةُ الرسائل لكم، تعزيةٌ وسلامٌ لقلبي، ولكني أخاف أن تصبح هذه الرسالة دينونةً رهيبةً وحكماً علينا جميعاً.

١- مَن يتكلم بلسانِ سوءٍ ضد الإخوة، هو متحالفٌ مع الشيطان، ويسعى لكي يهلك الضعفاء والصغار. وقد قال الرسول عن الشيطان إنه هو الذي يشتكي علينا، إذ يثير غضب الإخوة ضد بعضهم البعض، وبذلك يضعهم تحت الدينونة.

٢- قبيحٌ بالذين جحدوا العالم أن يتحدثوا عن أعمال الآخرين، لا سيما إذا كانت هذه الأعمال رديئةً. لماذا يتكلم بالشَّرِ مَن صَلَبَ ذاته؟ أليس لأنه نزل من على الصليب وصار مثل اللص الذي قال لابن الله اِنزل عن صليبك لكي تبرهن لنا أنك ابن الله؟ فلمَّا سمع المخلصُ هذه، لم يرد عليه. وهكذا الذين نالوا هيئة الرب في المعمودية وصار شكله مطبوعاً فيهم، متى احتقروا بنوَّتهم لله، نزلوا عن الصليب وتشاجروا مع أهل العالم، وأخذوا يملأون قلوبهم وآذانهم وآذان الناس بالوشايات والكلام الباطل.

لا تقل شيئاً ولا تردد شيئاً سمعته، حتى وإن كان حسناً. هكذا علمنا الشيوخ، فالصمتُ ليس بسكوت اللسان، وإنما أيضاً بسكوتِ القلبِ عن مذمة الناس.

٣- أمَّا الشكوى، فهي "سُمٌّ في الدسمِ"؛ لأن الذي يشتكي يتصوَّر أن الحقَّ معه، وإن كان الحقُّ معنا فبالأولى أن نصمت؛ لأن الحقَّ لا يحتاج إلى كلام. والحقُّ يعلنه السلوك المقدس الذي لا يحتاج إلى دفاع أو تفسير. أمَّا كلام المذمة، فهو عثرةٌ للصغار ودنسٌ للكبار وعائقٌ شيطانيٌّ في طريق تقدمنا الروحي.

٤- لقد قال الرسول: "المحبة تستر كثرة من الخطايا"، وكان يعني بالدرجة الأولى محبة الله الذي أعطانا فرصةً للتوبة، ولم يفضح خطايانا أمام الناس، وحَفِظَ لنا هذه الكرامة حتى لا نتوجع من خدمة الناس. فلماذا لا نحفظ نحن كرامةً للخطاة حتى إذا عادوا إلى التوبة وجدوا أن فيها ميناءَ سلامٍ بلا عواصف المذمة؟

٥- قبيحٌ بالذين يقولون إنهم مسيحيون أن يذمُّوا بعضهم بعضاً. لقد أخذنا اسمنا من المسحة التي قال عنها الرسول: "وأمَّا أنتم فلكم مِسحة من القدوس". هذه المِسحة هي عطرُ الحياة والخلاص؛ لأننا لسنا رائحةَ موتٍ تنشر المذمةَ

وخطايا الإخوة، بل رائحةَ حياةٍ تنشر السلام والمحبة. فإننا إن شتمنا الناس، وأهنّا خليقة الله، ألسنا نلطِّخ المِسحةَ الحلوةَ للخلاص التي أخذناها؟ ألا نوجد متجاسرين على مجد الله العظيم؟ لأننا بعد أن نشترك في تسبيح الشاروبيم والسارافيم في الليتورجية المقدسة، تمتزج كلمات اللعنة بألسنتنا ونصبح مثل الأرواح الشريرة المجدِّفة التي تجرِّب الله بنصبِ الشراك والفخاخ كل يوم للضعفاء والمساكين.

٦- لنحارب المذمةَ واللعنةَ والكذبَ والكلام الباطل، ليس فقط من أجل الدينونة الآتية، ولكن لأن كل هذه الخطايا، إنما تهدم الكنيسة جسد المسيح الواحد، وتلطِّخ أعضاؤه وتعيق توبة الضعفاء.

٧- صلوا لأجلنا لكي نتكلم دائماً بالحق، ولا يفارق التسبيحُ أفواهنا، وإن تحدثنا مع إخوةٍ، فليكن حديثُ المحبة دائماً في قلوبنا.

سلامٌ في الرب.

٥ - علاجُ الكآبة

من صفرونيوس إلى الإخوة الذين في دير المبتدئين.

١- سلامٌ في الربِّ إله كل تعزية، الذي إذا تركناه، هاجمتنا الأحزان وباغتتنا التجارب.

ليمنح لنا الرب يسوع بصليبه وبموته هدوءَ الجسد والروح، كما قال رسوله المجاهد: "الذي مات قد تبرأ من الخطية"؛ لأن الموت الطبيعي يقتل الشهوات الطبيعية. أما الموت مع المسيح، فهو التخلي عن الحياة الفاسدة، هذا يحيي الروح والجسد، وينقل الإنسان إلى الحياة الجديدة.

٢- الكآبةُ التي تباغتنا على حين غرةٍ، وتصرعنا مثل جزارٍ يذبحُ شاةً، هي إمَّا من العدو، وإمَّا من البقايا الطبيعية الآدمية القديمة.

فإذا كانت من العدو، فإن النفس تحسُّ بأنها محاصرةٌ من الخارج، ولكنها ترى ينبوع سلام الروح القدس يتدفق فيها، ولذلك إذا جزعتْ تفيق فوراً، والعدو لا يقوى عليها، ولا يقدر أن ينهب أمتعتها، إلَّا إذا غادر القوي مكانه وتركه خاوياً. وهكذا، إذا غادر العقلُ ميناءَ سلامه وعاش في خواءٍ، فإن أصغر الأرواح المعاندة تصرعه وتقوى عليه. أمَّا إذا ظل العقلُ في شركة السماويات، فإنه قد يُباغَت من الدار الخارجية، ولكنه من الداخل يظل في هدوء

السماويات وعدم انزعاج، وحِفظ القوة الإلهية التي تضبط كل شيء داخله.

٣- الإخوة الذين ساروا في طريق الشيوخ يلزمهم حرص الشيوخ، وهؤلاء كانوا يدركون أن العمل اليدوي وقراءة الكلمة والجلوس عند المدبِّرين، هو زوايا البيت الذي يرتفع عليه هيكل الله، أي الحياة الجديدة. أمَّا غير ذلك، فلم نسمع به في الرهبنة.

٤- ولذلك عندما تُقاتُلنا الكآبة ويُهاجمنا روح التثاقُل وعدم الاهتمام، فإننا يجب أن نُسرع ونتأمل ذواتنا ونفحصها جيداً، لئلا تكون هناك شهوةٌ قديمةٌ لم تتحقق، أو رغبةٌ مستترةٌ تذكرناها بحزنٍ، أو مال عقلُنا إلى السيرة الماضية، وهان علينا أن نعيش في التجرد.

٥- إذا دامت الكآبة، فالأكل والنوم نافعٌ لنا، ولكن بدون إفراط. وراحة العقل في النوم تفيد الحياة الداخلية للاتزان. أمَّا التسبيح والترتيل، فهو مثل مَن يفك أسيراً من قيده ويطلقه إلى عنان السماء.

٦- وقت الراحة يكون اختباراً للاحتراس واليقظة. لأن في راحة الجسد فائدة عظمى للذين يكتئبون. والإخوة الذين يُهاجَمون بالكآبة، عليهم أن يمتنعوا عن الأعمال

الشاقة، وأن يهتموا بالبيعة وحُسن ترتيب الكتب، ونظافة الهيكل، أو الاكتفاء بالمرور على القلالي لخدمة الشيوخ الذين يحتاجون إلى خدمة. أمَّا الصوم، فهو لا ينفع، ليس لأن أكل الطعام يقود إلى البهجة، وإنما لأن الانقطاع عن الطعام قد يزيد الكآبة الداخلية. فالقلب الكئيب قد يجرَّب بالتذمر، ولذلك، قلة الطعام تجربةٌ له، ولا تعود عليه بالنفع.

٧- السجودُ مفيدٌ جداً لأنه يحرر الجسد من الثقل، ولذلك تناوَل الطعام في الصباح ونصف النهار، واستعد للسجود في المساء بالامتناع عن الطعام لكي يتحرر الجسد من ثقل الطعام.

٨- الذين لا يجحدون ذواتهم بإفرازٍ تهاجمهم الأحزانُ والكآبة بقوة؛ لأن الإرادة لم تتحرر، ولا زال عندهم حساب الربح والخسارة. هؤلاء يحتاجون إلى دواء الصليب المحيي لكي تشفَ طبيعتهم من التعلق بالأمور الفانية.

٩- أمَّا السيرُ في البرية، فهو دواءٌ للعقل قبل أن يكون عملاً للجسد، والاهتمام بجمال الخليقة والشكر على عطايا الله الصالحة، يحرر القلب من الكآبة.

١٠- علينا أن نداوم السهر على أنفسنا، لا لكي نهرب من الكآبة أو من الأحزان، فالهروب لا يجدي، وإنما

نسهر على أنفسنا لئلا تتسلل إلينا محبة العالم، ونجد أننا ابتعدنا عن الله قليلاً قليلاً مثل قاربٍ بلا مرساةٍ، تجرفه الأمواج الصغيرة بهدوءٍ، وبعد أيام تجده في عرض البحر، وفي وسط العواصف.

١١- الذين يعودون إلى الله يجدون دائماً سلاماً وفرحاً في توبتهم، أما الذين تملأ العظمةُ قلوبهم ويجزعون من سقوطهم، فهؤلاء تقاتلهم الكآبةُ وتقودهم لليأس. نحن لا نفرح إذا سقطنا، ولا نفرح إذا عزمنا على التوبة، وإنما نفرح لأن باب رحمة الآب السماوي مفتوحٌ على الدوام، ولن يغلق إلَّا يوم الدينونة. وطالما أن يوم الدينونة لم يحضر، فليكن لنا رجاءٌ في رحمة الرب الذي يجذب إليه كل الخطاة.

١٢- الصلوات، لتكن بقدر؛ لأن الإطالة في الصلوات لا تفيد الذي ملأت الكآبةُ قلبه، وإنما لتخدم القراءة أكثر؛ لأن البحث في كلمة الله يجعل الإنسان يفقد الشعور بالكآبة. وإذا امتلكنا السلام والتعزية، فلنفرد قلع قارب الصلاة والتسبيح لكي نُبحر بعيداً عن المياه الراكدة.

١٣- زيارة الإخوة في القلاية، لتكن في حذَرٍ ويقظةٍ. وإذا كانت لدينا روح الشركة الحقيقية، فالكلام مع المبتدئين التائهين ينفعهم لئلا يكون لديهم رجاءٌ كاذبٌ

بأن الرهبنةَ تخلِّص الإنسانَ من التجارب، أو ترفع عنه أحزان الحياة. فالأحزان الناتجة عن الخطية أقوى من مشاكل الحياة؛ لأن أحزان الخطية لها جذورٌ في قلب الإنسان، أما أحزان الحياة اليومية، فهي تعبُر وتتغير ويجد الإنسان في قلبه قوةً على مقاومتها. لكن الخطية تقود إلى برودة القلب وعدم الاكتراث والاستخفاف، ثم تسكب الأحزان في القلب؛ لأن المشورة الفاسدة لم تنجح، ولأن الضمير أخذ ما ظنَّ أن فيه سعادته ووجده غير كامل، أو أن الإنسان تذوَّق الشرَّ ووجده غير كافٍ، فظل ينحدر باحثاً عن السعادة حتى تلاشى الإحساس بالحياة القديمة التي تعود وتقابلنا، إذا لم نسلك بفطنةِ وحكمةِ الروح.

الأحزان التي تأتي من الخطية، تؤكد أن الإنسان لم يُخلَق للشر والفساد، وإنما خُلِق لله وعلى صورته.

١٤- علينا أن نفحص دائماً عن نيتنا الداخلية: نرى أين هي، وما هو مصدر فرحها وعزائها، فإن كان فيها بقايا العالم أو رغبةٌ في الأمور غير السماوية، فلنعلم أن الأحزان والكآبة، لن تكون بعيدةً عنا.

١٥- الذين يسقطون بالجملة في براثن الكآبة ولا تقوى الإرادة عندهم على شيء، يُوضَعون مع الإخوة المرضى،

ويأخذون الطعام معهم حتى ينالون السلام.

إله كل تعزية يحفظنا بقوته، ويدبِّر حياتنا برحمته.

صلوا لأجلنا؛ لكي ننال الفرح من الله،
فلا تقوى علينا الأرواح المعاندة.

٦ - روح الفضول الباطل

١- "لا تقل في قلبك مَن ينزل إلى الهاوية لكي يُصعِدُ المسيح مِن بين الأموات". بهذه الكلمات خاطَبَ الرسولُ الكنيسةَ الجامعة محذِّراً إياها من روح الفضول الباطل؛ لأن الذي اهتم بالخلاص، ليس البشر جميعاً، وإنما الله. ولم تذكر الكتب المقدسة أن الله أقام إنساناً مخلِّصاً، بل هو وحده المخلص.

٢- لذلك، احذروا أيها الإخوة سموم الأريوسية القاتلة، ولا تقل في قلبك كيف هو ابنُ الآب، وكيف هو مولودٌ قبل كل الدهور من جوهره؟ فهذه أسئلةُ الفضولِ. والبحثُ عن الأسرار الفائقة غيرُ متاحٍ للإنسان؛ لأنه مخلوقٌ من العدم، فهو لا يدري كيف خُلِقَت الأرض، ولا يدري سِرَّ اتحاد النفس بالجسد، ومتى تبدأ حياته، ولا حتى متى تنتهي. فإن كانت الأمور القريبة من الحِسِّ والإدراك، صارت صعبةً علينا، فكيف الأسرار الإلهية العالية؟

٣- اِخبرني كيف خُلقت الأشجار، أو كيف نُظِّمت عناصر الكون؟ اِخبرني إن كنت تستطيع: كم عدد الذين عاشوا قبلنا، وكم عدد الذين سيأتون؟ فإن كنا لا نعرف هذه المسائل الصغيرة جداً، فكيف يمكننا -ونحن مجرد

حبَّاتِ رملٍ على شاطئ الخليقة- أن ندرك البحرَ العظيم، أي الله الذي لا حدَّ له.

٤- لنبتعد عن الفضول ومحاولة الارتفاع إلى مستوى أعظم من مستوانا البسيط؛ لأننا كلما ارتفعنا وسقطنا، صار سقوطُنا أكثر ألماً.

٥- فإن هاجت علينا أمواجُ أسئلةٍ باطلة، لترمينا في بحيرة الحيرة والقلق وتفسد علينا الهدوء والصمت، فلنتمسك بالإقرار بأننا خُلِقنا من العدم، وليس لدينا قدرة على إدراك أغوار الله السحيقة. لنبتعد في مثل هذه الأوقات عن الجدل، ونحرص على راحة الفكر والجسد؛ لأن التعب يزيد من عدم ضبط الحواس.

صفرونيوس يسألكم الصلاة لأجله،
ولأجل المبتدئين، والذين في الشركة (الدير).

البرُّ الذاتي وأفكار الدنس

١- الربُّ يحفظ خائفيه، ويحمل الضعفاء على منكبيه، وبستر مظلته يسترهم، وفي ساعة التجربة يمسك بيدهم، فلا يعثرون.

الأخوة الذين تزعِجهم أفكار الدنس، عليهم أن يعلموا أن الانزعاج هو غايةُ الشرير؛ لأنه يكفي أن ننتبه إلى مشورته، لنفقد حياة التأمل وننصرف إلى الأمور السلبية التي لا ثمر فيها.

سألني أحدهم إن كنت أنا نفسي -بعد أن شاب شعر رأسي وبدأت لحيتي تتساقط- أُهاجَمُ بأفكار الدنس وصور وخيالات الحياة الفاسدة؟ فقلت له: نعم، وأحياناً وأنا أُقدِّس تقاطعني الأفكار السوداء. فدُهِشَ الأخ؛ لأنه ظَنَّ أن التقدُّم في العمر يحمي الإنسان من الأفكار المشوشة.

٢- لا الأيام مهما طالت، ولا كثرة السهر، ولا الدوام على الانقطاع عن الطعام يحمي عقل الإنسان من أفكار السوء.

٣- لكن المواظبة على إهمالها وعدم التَطلُّع فيها يُفقِدُها قوتها.

٤- لا تفرح إذا مَرَّت عليك أيامُ هدوءٍ، ولا تنزعج أيضاً، بل ليكن قلبك ثابتاً في الصلاة وخدمة الأخوة؛ لأن الصلاةَ

نقاوةٌ للفكر، وخدمة الأخوة، لا سيما التعب، ينقي الجسد من زيادة القوة ويحفظه هادئاً. أمَّا التواضع، فسورٌ عظيم؛ لأن المُتَّكِل على الرب، يجد في اتكاله عزاءً وتصغر نفسه.

٥- لا تحاول حماية فكرك؛ لأنك تُباغَت مهما فعلت، ولكن أجعل لفكرك هدفاً تتطلع إليه. وفي حياة التأمل، يتعلم العقل كيف تفقد المباغَتةُ الشريرةُ قوتها. بعد ذلك، يثير عليك العدو أفكاراً غريبةً لم تعبر مطلقاً بفكرك، وهي من الخبرة الماضية، فلا تفزع ولا تظن أنكَ هالكٌ.

٦- فأنت لا تخلُص بحُسنِ فكرك، ولا تتقدس بخلو فكرك من السوء والظن، وإنما تخلُص برحمة المسيح، وتتقدس بالكلمة، وبالسر العظيم، وبسكنى الروح القدس.

٧- لذلك، لا تقتني في قلبك الاعتقادَ بأن اقترابَكَ أنت من الله هو الذي ينجِّيك، وإنما آمن الإيمان الصحيح بأن اقترابَ الله منكَ متجسِّداً في ابنه الوحيد، هو الذي ينجِّيك.

٨- كلَّما نما إيمانك، زاد اتضاعُك؛ لأنك ترى الله القدوس يمدُّ يدَ المصالحةِ والسلام نحوك. فلا تظن أنه صالحك لأنك أنت الذي تمدُّ يدك إليه؛ لأنه جاء إليك وأعطاك ابنه الوحيد. فهو الذي جذبك نحوه، ولست أنت

الذي جذبته؛ لأن ربنا يسوع المسيح قال: "لا يقدر أحدٌ أن يأتي إليَّ، إن لم يجتذبه الآب أولاً". فإن كان هو الذي أتى إليك، فلماذا ينمو بِرُّكَ الذاتي وتقول: ها أنا أتيت إليه؟ لأن كلَّ مرةٍ يقوى فيها بِرُّكَ الذاتي، تقوى فيها الأفكارُ المعانِدةُ وتسلبك ذلك الفرح الغريب الذي ليس من الله.

أمَّا سيدنا له المجد، فقد قال: "تفرحون بفرحٍ مجيد"، وأضاف: "ويعجزُ الكلُّ عن أن ينزع فرحكم منكم"، أمَّا هذا الفرح، فهو المسيح نفسه، الذي وَهَبَ ذاته لأجلنا، وبقوة هذه الهبة نتشجع ونتقوى؛ لأنه إن كنا "ونحن خطاة، قد صُولِحنا، فكم بالحري الآن ونحن مُصالَحون"، كيف يتوانى هو عن خلاصنا؟

٩- لنكفّ عن الانزعاج، ولنضع آذان نفوسنا عند كلمة الله الحية القوية التي لها سلطان الحياة، ونسمع خبر الفرح بقيامة ربنا يسوع المسيح، فتكُفُّ شوشرةُ الأرواح الرديئة عنا.

سلامٌ من الربِّ. أنا أخوكم صفرونيوس،
أطلب صلواتَكم عني.

٨ - الطريق الملوكي

١- متى تجوز الراحة ومتى يحق لنا أن نتعب؟

لم يضع الآباء الذين سلَّمونا حياة الرهبنة مقياساً عاماً للكل، وإنما أوصونا بالاعتدال؛ لأنه الطريق الملوكي الذي يخلِّص كثيرين.

٢- بالنسبة للأخوة الذين يحفظون قانون المزامير، كثرة الصلوات وإطالة الوقوف تشحذ الإرادة وتقوي العزم. لكن مَن كان جسده ضعيفاً ولا يقوى على الوقوف فليجلس. أمَّا إذا تشتَّت فكره واستحالت عليه الصلاة، فليسجد ويعود إلى الوقوف. فقد استلمنا من الآباء الذين سلكوا نفس الطريق أن الإنسان يصلي واقفاً بسبب الكسل؛ لأن الوقوف انتباهٌ ويقظة.

٣- إذا حلَّ تعبُ الجسد بنا، وتعذَّر علينا أن نقف، فلنجلس أو ننام، ولو قبل الوقت؛ لأن النومَ راحةٌ للجسد، ومتى نام الإنسان؛ وَجَدَ في نومه قدرةً على الصلوات المبكرة.

٤- الذين يقاتَلون بعدم الرغبة في الصلاة، يحسُنُ بهم أن يمارسوا سجدات كثيرة، وطلبات قصيرة، ومزامير أقل، وأن ينشغلوا بقراءة الكتب الإلهية؛ لأن البحث في كلمة الله ينشِّطُ العقلَ ويجدِّدُ إرادة الإنسان. وإن وجدوا أن الأمرَ

طال بهم، وصاروا مثل مركبٍ بلا شراع، فالخروجُ من القلاية خطرٌ، والانشغالُ بالأحاديث مع الأخوة أكثرُ خطورةٍ.

٥- القلب الذي يجد تعزيةً وسلاماً في الحديث مع الأخوة، ولا يجدها في كلمة الله، هو مثل طفلٍ صغير يكاد يغرق وهو لا يدري.

٦- علينا باليقظة؛ لأنها تعيدنا إلى الاتزان وإلى الصبر، وترجعنا إلى طريق الراحة الحقيقية.

٧- فترات التعب الشديد التي تجعل أفكارنا مثل حجارةٍ ثقيلةٍ هي علامةٌ على أننا نحتاج إلى الصمت والراحة الجسدية، فمتى صرنا في مثل هذه الحالة، فلننم لأن رحمةَ الربِّ أعظمُ من جهادنا.

٨- على كل إنسان أن يتبع ما تطيقه نفسه، وهو ما لا يتسبب في ارتباك حياته؛ لأن المرتبك -ولو هو في الملكوت، ومع الذين قاموا من الأموات- لا يجد سعادةً وفرحاً.

٩- لقد دعانا الله برحمته الفائقة أن نكون آنيةً مقدسةً لخدمته؛ لذلك لا يجب أن نتطلع إلى القمم العالية ونشتاق إليها كما لو كان فيها خلاصنا، وإنما إلى محبته وصبره علينا؛

لأن صبر الله وحده هو "الذي يقودنا إلى التوبة" كما قال الرسول.

١٠- الاعتدال في الأكل وبساطة الملبس والسير (المشي) والسجود يحفظ الجسد هادئاً. لكن هدوء الجسد ليس بتولية، وإنما هدوء القلب وفرحه بالروح القدس هو البتولية الحقيقية؛ لأن والدة الإله لم تحبل بالابن الكلمة من زرع بشر، وهي صارت مثالاً لكل الذين اقتنوا البتولية بالحَبَلِ بالابن الكلمة، أي سكناهُ فيهم ليس حسب الجسد، بل حسب الروح.

١١- هدوءُ القلبِ هو بداية الحَبَلِ، أمَّا التسليم، فهو أوجاع الولادة. ومتى ولدنا، أي تغيَّرت حياتنا وأثمرت لله، صارت الثمرة في حاجة إلى لبن المحبة العديم الغش الذي يعطيه الروح القدس للذين يطلبونه.

سلامٌ من الرب.

٩ - الذبيحةُ العقلية

من صفرونيوس إلى الأخوة في دير المبتدئين.

١- الذين يسلِّمون على بعضهم البعض باسم الرب يسوع، لا يجب أن يحملوا في قلوبهم إلا "وداعة المسيح وصبره". أما الذين يعتبرون أن التحية هي مجرد عادة، فهؤلاء لا موضع لهم في الكنيسة الجامعة؛ لأننا لسنا مثل الأمم، نقول "سلام"، بل "سلام في الرب" كما علَّمنا الآباء الرسل، أن السلامَ شركة.

٢- الذين يهتمون بنظافة الجسد، إنما يهتمون بما هو زائل، ولم يعلِّمنا ربُّنا يسوع المسيح أن الاغتسال بالماء يقدِّس الإنسان، وإنما طهارة النية الداخلية التي يعطيها الروح القدس للذين يسألونه بأمانة وينتظرون عمله.

٣- الجدال حول طهارة الجسد، لا ينفع أحداً، ولا يزيد الاغتسال بالماء عمل الروح القدس فينا، وإنما قد ينتفع الإنسان من النظافة، لكنها أمام الله ليست شيئاً، فهو لم يُرسل لنا المياه لكي نغتسل بها، وإنما أرسل لنا ابنه الوحيد لكي يُطهِّر طبيعتنا من الفساد الداخلي، ويخلقنا على صورته ومثاله في قداسة البر والحق.

٤- الذين اعتمدوا باسم الآب والابن والروح القدس وصاروا هياكل حيَّةً للروح القدس، هؤلاء يلتزمون بشريعة الحياة الجديدة في المسيح، ويطلبون الحياة الآتية، والقيامة من الأموات، ويفهمون إن الاغتسال الحقيقي هو نقاء السريرة والابتعاد عن دنس الكراهية وقذارة الكبرياء. وبسبب النقاوة التي فيهم، يفزعون من هذه الشرور لأنها تفسد عمل الله وتجعلهم "آنية غضب". هؤلاء لا يعنيهم قذارة الجسد، بل قذارة القلب وفساده، ولأنهم يرفعون عيونهم إلى فوق، يدركون أن سُكنى اللاهوت فيهم هو القداسة الحقيقية؛ لأن الذي يسكنه الله، يصبح هيكلاً مقدساً للرب كما قال الرسول: "أنتم هياكل الله وروح الله يسكن فيكم". أمَّا الذين لا يسكن فيهم الله، فهؤلاء يطلبون اغتسال الماء بنشاط وبغيره؛ لأن شمس الحياة المسيح يسوع لم تدركهم، ولذلك لا زالوا في ظلام الناموس ولم يعاينوا بعد الحياة الجديدة.

٥- لقد قال الرب: "من القلب تخرج الأفكار الشريرة"، وما يهمنا هو أن لا يكون القلب مكاناً للقذارة والأوبئة وقبراً يقبع فيه الشيطان، أي الموت. أمَّا الجسد فهو ليس دنيئاً ولا هو نجساً؛ لأن الذين نادوا بهذه الآراء قد أفرزتهم الكنيسة من شركتها. وحاشا لنا - نحن الذين نؤمن بنعمة ربنا يسوع المسيح "الذي افتقر وهو الغني"، أي

جاء وسكن في الطبيعة الإنسانية لكي يعطيها ما تحتاجه من خيرات حياته الإلهية – أن نؤمن بنفس تعاليم الهراطقة الذين يحتقرون خليقة الله.

٦– يا ليت الذين يهتمون بنظافة الجسد يدركون الفرق بين الجسد النظيف الذي اغتسل بالماء، والجسد المقدس الذي اغتسل بعرق الاتعاب والسجود، وصار نقياً لأنه قدَّم "ذبيحةً عقليةً"، ليست مثل ذبائح الناموس العديمة الحياة، وإنما ذبيحةً حيَّةً بالأعمال الصالحة التي يهبها الروح القدس للنفس والجسد.

٧– الذين يتعبون في العمل اليدوي، هؤلاء يصبح جسدهم نظيفاً من الداخل، حتى من الحركات الطبيعية؛ لأن قوته قد قُدِّمَتْ للأخوة، وليس للشهوة الرديئة والفساد. أمَّا الذين يعيشون حياة الكسل والتراخي، فأجسادهم نجسةٌ؛ لأن الكسل يقوي قتال الشهوة، وحركات الجسد الطبيعية تنمو وتصبح قوة تحرك النفس للتخلي عن الوصية الأولى، وهي: "من أراد أن يكون لي تلميذاً فليحمل صليبه ويتبعني". والذين أهملوا هذه الوصية، لا تستطيع المياه أن تقودهم إلى الحياة الجديدة، وإنما التوبة ونقاء الفكر بالعمل الشاق النابع من محبة الأخوة والاشتراك في احتياجاتهم.

٨- طوبى للذين يغتسلون بكلمة الله، لأنها ينبوع حياةٍ أبديةٍ تنقي الفكر وتطهِّر القلبَ وتقطع الهوى، فهي "سيفٌ ذو حدَّين"، يصل إلى الأعماق الخفية التي لا يراها العقل، ويحكم على نية الإنسان إن كانت مضادة لله. أمَّا الذين يهتمون بالماء الأرضي ويغسلون أجسادهم فيه، فهم مثل الملابس التي يلبسونها تنالها القذارةُ من الاستعمال، وتظل تحتاج إلى نظافةٍ مستمرة. أما الروح في الداخل، فمتى اغتسلت دام اغتسالها وزاد بهاؤها الداخلي، ولا تتسخ من أعمال المحبة أو خدمة الأخوة، بل تظل طاهرةً وتتطهر في كل ما تعمله وتلمع ببهاء المحبة الفائق؛ حتى أن الملائكة تطلب من الله أن ترعى هذه النفس وتحرسها.

٩- الذين يعيشون حسب الحرف، يهتمون بالأمور الظاهرة، وهؤلاء لا يثبتون في وصايا الرب المحيية، بل تصير الوصية النافعة مصدر ارتباك وقلق؛، لأنهم ينظرون الروحيات بعيون لم تستنِر، بل عاشت في ظلام الحرف، فإن أشرق عليها نور الحياة الجديدة، ارتبكت مثل الحشرات التي تحب الظلمة ولا تقوى على أن تعيش في نور الحياة. هؤلاء إن سقطوا اغتسلوا بالماء، كأن الماء سوف يخلق فيهم إرادة جديدة ويطهرهم من الخفيات التي يزرعها الشرير. أمَّا نحن، فنعلم إن الربَّ صالحٌ، يطلب طهارة القلب بالتوبة،

لأن الذي سيرث ملكوت الله، ليس هذا الجسد الفاسد، ولا الملابس التي لا تقوى على البقاء، وإنما ما يزرعه الربُّ فينا من حياةٍ جديدةٍ صالحةٍ، وبقوة القيامة من الأموات، ندخل إلى ملكوته السماوي. وقد قال الرسول للذين أنكروا قيامة الجسد والذين يسلكون حسب الحرف: "لا تضلوا إن لحماً ودماً لا يرثان ملكوت الله ولا يرث الفاسد عدم فساد"، فإن قال ذلك عن الجسد ودعانا إلى أن نسعى إلى تقديمه ذبيحة حية حتى يقوم من الفساد ويتحول إلى عدم فساد بواسطة القيامة وبروح يسوع المسيح الذي سيقيم هذا الجسد الفاسد، فلماذا نجادل في طهارته.

١٠- لنكفَّ عن هذه الأمور الأرضية حتى لا نشيخ وتهرم أجسادنا، ونحن لم ندرك قوة الملكوت؛ لأن سنوات العمر مثل الأُبَرِ، يجب أن توقظ قلوبنا كل يوم مؤكِّدةً لنا إننا ما دمنا في الجسد "فنحن غرباء عن الرب"، وغرباء لأننا لا نزال نلبس الفاسد منتظرين قوة ربنا يسوع المسيح التي وُهِبَتْ لنا في المعمودية المقدسة لكي تثمر ثمرة القيامة للحياة الأبدية.

لنستيقظ ونعمل عمل الرب بكل قوة قبل أن تأتينا الشيخوخة أو يداهمنا الموت ونحن غير مستعدين له.

١١- الربُّ الكثير المراحم، عندما شاء أن يهبنا ميراثه، أي الحياة الأبدية، لم يقبل أن يعطينا هذه النعمة بواسطة المخلوقات التي تفتقر إلى غنى الصلاح وقوة المحبة، وإنما أعطانا هذه النعمة بنزول ابنه الوحيد وتجسده وصبره على الموت. وعندما احتمل كل هذا، "صنع تطهير لخطايانا" بواسطة آلامه المحيية. فكيف نظن نحن الذين تطهرنا بواسطة آلامه وقيامته أننا ننجو من دنس الخطية باغتسال الماء؟

١٢- الذين يسلكون حسب شريعة المحبة، يعلمون أن المحبة وحدها هي أساس السكنى مع الله، وهي ملح الشركة مع البشر. فكيف ننجو إن أهملنا المحبة وصارت ضمائرنا تحثنا على ممارسات عديمة الحياة مثل "الطعام والشراب" الذي "لا يقدمنا إلى الله"؟

١٣- صلوا عني؛ لأننا بالصلاة، نبلغ إلى طهارة القلب المقبولة من الله. والصلاة التي تغسلنا بدموع التوبة هي الاغتسال الحقيقي الوحيد الذي يطلبه الرب. فإن كانت الصلاة تطهِّر نيتنا الداخلية، وتجعلنا أطهاراً بسبب حضورنا أمام "عرش الديان"، أفلا نستحق لوماً كثيراً من الله ومن الناس إن اعتمدنا على الماء العديم الحياة ظانين أنه يعطي الحياة التي تؤهلنا للحضور أمام الرب كل حين، وهو ما يحتم

علينا أن نعيش في الأنهار مثل الأسماك ونرفض الحياة العقلية الفائقة التي فيها طهارتنا الدائمة بالروح القدس؟

١٤- الأتعاب لأجل الرب هي الطريق الوحيد للاغتسال الفائق، وخدمة الأخوة والعمل اليدوي الشاق، هو سلام النفس من أتربة النجاسة. أمَّا المتَّكلون على الممارسات الخارجية، فهم مثل عشب الحقل، لا يطرح ثمراً، بل يكون مآله الحريق.

ليحفظ الربُّ الذين يسلكون حسب شريعة ربنا يسوع. أمَّا الذين قد رفضوه، فهؤلاء مآلهم إلى حيث يتبدد الماء ويتحول إلى بخار، وهذا ما قيل عن الأشرار الذين اهتموا بأجسادهم وتركوا أرواحهم في يد العدو المهلك.

صلُّوا عني؛ لأن الصلاةَ طهارةُ القلب والجسد.